ليـــلة عيد الميلاد

للكاتب الانجليزى « نيوروربو »

بقـــلم الأستاذ كامل يوسف

— ١ —

طلب الناس الهدنة من أحزانهم ليـلة ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٧ وراحوا يحيون ذكرى ميلاد « السيد المسيح » ، فأنيرت الثريات الملونة، وأوقدت شموع شجرة الميلاد فى كل دار، وتدفق الشراب فى أجواف الناس ، حتى أصبحوا لا يشعرون إن كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤساً أم أثقالاً . وامتلأت البطون بألذ وأفخر المآكل ، حتى خيل إليهم أنهـا تكاد تنفجر من فرط ما استقر فيها، وتلمس كل المتع فمن غامر إلى مراقص المجون إلى مختلس للقبلات . كان الناس على هذه الحالة من المرح والسرور ، وهم يقولون فى أنفسهم : « غداً سيكون الطوفان » فستحمل إليهم الأنباء ويلات الحرب التى نزلت بذويهم وفلذات أكبادهم ، وربما حملت إليهم هـذه الأنباء ، وأشفق ذوو الأمر من تبليغها حرمة لهذا العيد المقدس .

فى هذه الليلة تنبه شيطان من شياطين العالم الآخر على حركة مرح غير عادية فى الكوكب الأرضى ، واستغرب صدور ذلك من سكان الأرض وقال فى نفسه : « لعلهم لا يشعرون بما يجرى من ويلات ! » ولم يدر سبب ذلك فلجأ إلى زميل من زملائه يعبر له عن عجزه عن إدراك السبب ، وكان بجوارهما مفستو فليس كبير الأبالسة ينصت إليهما فقال لهما فى ابتسامة ساخرة : ألا تعلمون سر هذا المرح ؟ اليوم ذكرى ميلاد رب السلام ، فأخى الإنسان ! إنه ينسى مصائب الأجيال والأزمان ممثلة فى الحرب الأوربية الآن ويهلل فرحاً بهذا العيد !

فلما سمع الشيطانان ذلك قال أحدهما للآخر : ما علم الأمر كذلك فدعنا نمزح ونضحك من الناس قليلاً هذه الليلة .

فأجابه الآخر : وأين نضحك وهنا مجال عملنا فى الضحك والاستهزاء ، وأشار بيده إلى جهنم . فقال الأول : حقاً إنه لمجال مُملٌّ ممل، وإنه لا يسرنى شىء أكثر من ذلك الرجل الذى يقال له فيدياس فقد قيل عنه إنه أخرج أحسن دمية عرفها التاريخ، ومن ذلك الرجل الذى يقال له « دافنشى » ، ومن ذلك الرجل العابس الذى كان يكره أمه كرهاً عميقاً وانفصل عنها ثم جمعتهما المصادفة فى موطننا العزيز أعنى به «شوبنهور» . ليس يضحكنى أكثر من هـذه الشخصيات الغريبة التى تبدت فى شخص امرأة جميلة ، رآها فيدياس فقال إنها أجمل ممـا صاغته يده ؛ ورآها دافنشى فاعترف بحقارة فنه تجاهها ؛ ورآها الرجل العابس شوبنهور فأقر بخطأ رأيه فى المرأة وعادت العلاقات بسببها مع أمه ، تلك المرأة المتملقة ، ورآها لويس الرابع عشر فأمر مدام بمبادور أن تكون خادمتها ، واستحت كليوبطرة أن تظهر أمامها لئلا تفقد شهرتها التاريخية .

وكان هذا الشيطان مع حداثة عهده قديراً مبدعاً فى مخاطراته، وساخراً بارعاً فى أفعاله ؛ وكان زميله ينصت إليه بشوق ولذة ، فقال له وهو معجب : هيه يا بلزبول ! فاستمر الأول يقول: تصور هذا الجمع من الجانين تظهر فى وسطهم حورية ! لقد كنت أتودد إلى كل واحد منهم على حدة حتى أدعه يثق بأنها أصبحت أسيرة هواه ، فإذا استقر هـذا الرأى فى ذهنه تحولت عنه إلى آخر ، ومثلت هذا الدور نفســه مع كل واحد ، وبذلك استفززت غيرتهم جميعاً فنشب بينهم الخصام . وسمعت شوبنهور يقول بعد ما قاسى الخيبة : « محال أن أزل من رأيى الذى ذكرته فى المرأة . إنها الخادعة الماكرة » وسمعته ينادى نيتشه : تعال يا بنى وهات معك سوطك لـكى أنتقم مع هذه المرأة المغرية » فقد ضحكت كثيراً من حركات هذا الفيلسوف العصبية . ووددت لو صورت نفسى على مثال كلبه لـكى أمزح معه ، ولـكنى أشفقت على أعصابه . لقد كان يوماً جميلاً حقاً ظللت فيه أبحث عنك لـكى تشهد هذا الفصل المضحك فلم أجدك ، فأين كنت ؟

— كنت مشغولاً بدعاية من نوع دعايتك . فقد هيأت لنيرون أن يشعل النار فى جهنم ليزيد فى لذته ، فإذا اسعد

لذلك ظهرتُ كالمارد فاستخزى وسكن جنونه . ولكنى فى الحق سئمت هذا المزاح وتاقت نفسى إلى شىء جديد .

فقال الشيطان الأول : وأنا كذلك أريد تجديداً .

ثم قال فرِحاً كمن طرأ عليه خاطر جميل : دعنا نمرح ونسخر مع من فى الأرض الليلة ؟

— وهو كذلك . إنها لفكرة حسنة . دعنا نضحك من سخفهم هذه الليلة .

— ٣ —

فى مساء تلك الليلة اجتمعت الجموع فى كنيسة القديس بولس . وكانت الجموع خاشعة ، وقد اكتظت الكنيسة بالمصلين ، كل قد جاء يدعو الله أن يحفظ أهله من شرور هذه الحرب الطاحنة ؛ وكانت صلاة القداس يملوها وقار وجلال لم يشهد من قبل ، وكانت قلوب المصلين تتجه إلى الذات العلية مخلصة صادقة فى دعواتها وصلواتها ؛ وظل هذا الجلال والصمت لا يقطعهما غير صوت الكاهن وأغانى الشمامسة ونغمات الأرغن حتى أتى دور الدعوات ، فأخذ الكاهن يتضرع إلى المولى عز وجل أن يزيل الكروب ، وكان يجد من مساعدة الشعب له ما يجعلهم يرددون بصوت رن صداه فى قبة الكنيسة ومن أعماق القلوب « آمين يا رب . آمين يا رب » واستمر الكاهن فى توسله يقول : « وامنع الحروب والغلاء والفناء وسيف الأعداء » ، وقد توجهت القلوب بجماتها إلى الذات الإلهية بإخلاص أن يكشف عن الإنسان ذلك الكابوس الثقيل الذى لم يقاس أفظع منه . ومن منهم لا يتوجه بإخلاص إلى الله بهذه الضراعة وكلهم منكوب إما فى نسله أو فى ذوى قرباه ؟ لذلك كانت « آمين يا رب » تخرج من القلوب بحرارة صاعدة إلى عرش الملكوت فى ذلة الضعيف يطلب صنيعاً من سيده .

فى هذه اللحظة الرهيبة كان المستر باترمان يردد هذه الدعوات وهو يقول فى دخيلة نفسه : « يا رب لا تسمح بإجابة هذه الضراعة لأن فيها خرابى بل خراب أمتنا العزيزة » ، وكان الشيطان الكبير يرافق زميله الصغير فى هذه الحفلة المقدسة . فلما سمعا المستر باترمان اقتربا منه وسمعا أمنيته فضحكا من هذه المهزلة الإنسانية الكبيرة وأرادا أن يعبثا بالمستر باترمان فرغب الشيطان الكبير أن يهوى الرجل على الأرض ، وكان عجوزاً فى السادسة والستين من عمره لا يقوى على الوقوف طويلاً أثناء القداس ؛ لذلك كان يستند على عصاه الآبنوسية ، وفى فترات السكون الشامل بين الضراعة والأخرى ، جاء الشيطان الكبير فزحزح العصا . فسقطت من يد الشيخ العجوز وأحدثت ضجة كبرى لفتت أنظار المصلين ، وانكفأ الشيخ على وجهه وكاد يسقط لولا أن تمالك نفسه ، ولما كان لا يقدر على الوقوف بدون العصا ، انحنى ليأتى بها ، ولكنه ما كاد يقبض عليها حتى خطر للشيطان الصغير أن يعبث به أيضاً فجذب العصا منه ثم تركها تهوى على الأرض فأحدثت مثل الضجة الأولى فى فترة السكون ، ولكن المستر باترمان أحكم فى المرة الثانية القبض عليها ووقف مستنداً إليها وهو يشعر بشىء من وخز الضمير عله بأنه نتيجة أمنياته التى تخالف أمنيات المصلين

والمستر باترمان من أغنياء الإنجليز وصاحب مصانع الذخيرة والأطعمة المحفوظة ، وهو مع ذلك من أقطاب السياسة وله نفوذ كبير فى إدارة دفتها . لذلك لا نستغرب منه هذه الأمنيات السيئة ، إذ فى إبطال الحرب ضياع ثروته التى جعلها فى مواد سيكون مصيرها البوار . وهو ككل رجال السياسة يبعدون عن توخى الصالح العام ، يوقعون الأمم فى شباك الحروب للغنم الذى يعود عليهم أو لخطر وهمى فى أذهانهم ، ويدفعون بملايين من أرواح البشر فى سبيل هذه الغايات المجرمة . وكان من سوء حظ البشرية أن نعتقد فى رجالها القداسة ، وكان المستر باترمان ككل سياسى يبرر موقفه المخزى بشتى العلل والنيات . لذلك كان يعجب على هذه الضراعات التى كانت تخرج من قلوب المصلين ومن صميم الإنسانية جمعاء ، بالتوسل للذات الإلهية ألا يجيبها لماذا ؟ لأن فى إجابتها وانتهاء الحروب ضياعاً لثروة أمة عظيمة فى ثروته تصبح بعدها فى ذل الإفلاس والانحطاط المالى

انتهت الصلاة وخرج باترمان وهو ما زال يشعر بوخز ضميره ، وقصد النادى وخرج وراءه الشيطانان ، وقال أكبرهما : لنتبعه حيثما يذهب ، ولنجعل منه متعة لأنفسنا الليلة . « فما كاد يدخل ردهة النادى حتى سمع أصواتاً عالية كان أصحابها فى مناقشة حادة ؛ فلما دخل القاعة وجد أعضاء النادى فى صخب وجدل فسأل

صديقه المستر كونراد عن سر هذا الجدل ، فعلم منه أنهم يجادلون في محاصرة بلاد العدو . وهل هـذا العمل يكلف الحلفاء والإنجليز خاصة أكثر مما يربحون ، ولكن باترمان لم يكن صافي الذهن خلي البال حتى يدلي برأيه ، غير أنه سأل صديقه :

— وهل من جديد في الجو السياسي ؟

فأجابه : لا شيء غير ما نقلته إلينا التلغرافات الآن من أن البابا يناشد الدول المتحاربة وخاصة الحلفاء أن يكفوا عن القتال

وقد وجد باترمان مجالاً يخرج فيه من صمته الذي لزمه منذ كان في الكنيسة فانفجر صائحاً :

— لقد ضايقنا هذا البابا بأمنياته ، فماذا يهمه من الحرب ؟ نحن الذين ضحينا بأبنائنا وأموالنا لنا الخيار في الكف عن الحرب أو الاستمرار فيها ؛ أما هو فماذا يهمه من الخسائر ؟ لقد انزوى هو ورجاله في معقل الفاتيكان ثم يريد أن يملي إرادته علينا . إن خير جواب على هـذا النداء أن نقابله بما قوبلت به نداءاته الأخرى بالإعراض والإغفال

فرد عليه صديقه المستر كونراد :

— أنت محق يا عزيزي باترمان . إن البابا لم تحترق يده في النار ليعرف ما هي النار . لذلك لا يمكنه أن يحكم على زعمائنا ؛ وهو لم يتناس في هذا الميدان ؛ وهو وجنوده يصمدون من أكل أجود اللحوم وشرب أفخر الأنبذة . دع غواصة ألمانية تصيب أربعة منهم وهم يتنزهون في قارب — أقول أربعة فقط لا ملايين كما فقدنا نحن — وعندئذ يحق لنا الأخذ برأيه ونقول إنه جرب الأسى والحزن مثلنا ، وعندئذ لا يبالي أن يصب غضبه وغضب الإله الذي ينوب عنه على هؤلاء السفلة الألمان

وكانت هذه الإجابة قد أرضت سياسينا فكسرت من حدة غضبه ، واطمأنت ثائرة نفسه فقال — هو كذلك — : أوعز إلى الصحف المحافظة أن تستخف بنداء البابا ، ولتدع الصحف الكاثوليكية تتلهى بهذا الحلم الخيالي الذي يبدو جميلاً لأربابها أعني به الصلح والسلام

— وهو كذلك

وانصرف باترمان وخرج من النادي بعد أن وقف على تطورات الحالة السياسية وقصد فندق سيسل ، وكان الفندق غاصاً بالناس تلك الليلة يحيون فيه عيد الميلاد ، ودخل المستر باترمان الفندق وخطا في ردهته الطويلة فلفت نظره في نهايتها ما حرك اهتمامه ، فدرج نحو هذا الشيء وهو يقول في نفسه : « هل بعث ؟ محال أن يكون ذلك ، فلسنا في عصر المعجزات ، إذن لا بد أن تكون قريبتها » ، وكلما اقترب ازداد يقيناً ، لأن ما رآه أمام ناظريه الآن ينبئ عن صلة القربى . فأمامه سيدتان كبراهما ذات جمال رائع وقامة كغصن البان ، وعيون هي موارد السحر ، وشعر هو الذهب الوهاج ، وسن في حدود الثلاثين ؛ والأخرى لا تقل عنها حسناً ، ولكنها أقصر قامة وأقل فتنة . وقد اقترب منهما باترمان وهو واثق من هذه القربى ، وشغل بهما فلم يع شيئاً غيرها . ولما وقع نظره عليهما شعر بتجاوب العاطفة في نفس تلك السيدة ؛ فقد بدا على ثغرها ابتسامة جميلة فهم منها الشيخ معنى الرضا . ولما اقترب منهما رفع قبعته وانحنى وحياهما : « مساء الخير يا سيدتي ! عيد ميلاد سعيد »

فأحنت الكبيرة رأسها قليلاً بكبرياء ، وأجابت هي وشقيقتها الصغيرة : « مساء الخير يا سيدي ، عيد ميلاد سعيد » . ولم يكن المستر باترمان يعرفهما من قبل ، ولكن دفعه إلى هذه التحية وجه الشبه الذي رآه والذي أراد تحقيقه . لذلك لم يلبث أن فاجأهما بهذا السؤال : « أليس سيدتاي من أسرة سوانسون » فأجابت الكبرى في رفق وعلى ثغرها ابتسامة مغرية : « كلا يا سيدي ، بل نحن من أسرة كلارك » . وكان ثغر الصغيرة يفتر عن ابتسامة خفيفة ، ولكن الشيخ لم يقنعه هذا الرد . وذهب إلى أنه لا بد أن يكون هناك صلة قديمة بين أسرة سوانسون وكلارك ، ولكنه لا يمكنه تحقيق ذلك وهو في طريق كل إنسان يدخل أو يخرج من الفندق . لذلك دعاهما للجلوس معه فلم يرفضا ، وكانتا فرحتين طروبتين ، وقصدا مكاناً قصياً بعيداً عن ضوضاء الأحاديث وصخب الراقصين ، ودعاهما إلى الشراب فلم يرفضا ، وكانت علامات السرور بادية على محياهما ، كما كان الشيخ مسروراً لهذه العلاقة التي ذكرته بالماضي ... وكانوا كلما شربوا كثر ضحكهم وعلا صوتهم ؛ وكان الرائي يشاهد خصلتين من الشعر على فوديهما كأنهما قرنان ، ولم يفطن

لذلك الشيخ الذي أعماه السرور ، وقد حق للشيخ أن يسر ، فقد وجد شبهاً قوياً بين السيدة الكبرى وبين زوجته ، كان قد أحب في شبابه فتاة من طبقة النبلاء كانت آية الجمال في عصرها، ثم تزوجها بعد جهد جهيد ولم تعش معه إلا عاماً ونصف عام ثم ماتت على أثر ولادتها الأولى . فقطع على نفسه عهداً منذ ذلك الحين أن يحفظ لها المودة ما دام حياً ، وقد بر بوعده ، وصرف عنايته إلى ابنه « جيمس » وغمره بحبه ، وجعل منه الذكرى الوحيدة لتلك الحبيبة الراحلة ... فلذلك كان قرة عينه وحبة قلبه ، لا يألو جهداً في العناية بأمره ـ ولو كلفه ذلك كل ثروته ـ إخلاصاً لتلك الفتاة التي فتح لها قلبه لأول مرة ... وكان لجيمس تلك الطلعة السمحة التي كانت لوالدته ، وتلك النونة التي كانت في متوسط ذقنها ، فهو صورة منها . . . كان الشيخ المهدم يرى فيها مطلع السحر ... فلما وقع نظره في تلك الليلة على هاتين السيدتين ، انتعشت روحه ، لأن حبيبته تعود للحياة ثانية . . . واشد ما جذبته تلك الطلعة نحوها لتصور الماضي البعيد المملوء بالأحلام السعيدة ... ذكر كيف ظفر بحبيبته وتذوق السعادة لأول مرة في حياته ؛ ولكن الشقاء كان يسخر من هذه السعادة فلم يلبث أن انتزعها منه ... هذا الماضي البعيد يعود الآن ، وهو الذي جعله ينسى الحالة السياسية وما فيها من تطورات ومفاجآت ... كانت تشغل باله على الدوام ، وخاصة تلك الليلة . لقد اعتقد تلك الليلة بالبعث ، وكان يقول في نفسه : لعلها تجهل في حاضرها شخصيتها السابقة ... وقد كذب هذا الوهم ما رآه من ميلها من أول نظرة إليه . . فهي هي إذن ، وسذاجتها في حديثها هي سذاجة حبيبته التي ورثها عنها ابنه « جيمس » معبوده الثاني بعد أمه ، وكان يود تلك اللحظة لو يحضر جيمس ليشاهد طلعة أمه — أو على الأقل — ليشاهد طلعة نسخة منها ، ولكن « جيمس » في ميادين الحرب ، قد تملكته النزعة الامبراطورية تأبى أن يخلد إلى السكينة في الوقت الذي تصوب سهام العدو إلى هدم امبراطورية أجداده ، فتطوع في الحرب برغم كل العراقيل التي وضعها والده في سبيله ... ولكم كان يسر الشيخ إذا علم أن الفرقة التي ينتسب إليها ابنه قد حازت انتصاراً على العدو ، وكان يعتقد أن الظفر قد تم بفضل حذق ابنه ، وكان يكثر من ترديد ظفر الفرقة التي يحارب فيها ابنه أمام أصدقائه ، وكان يقول لهم : وإلى حذق ابني يرجع الفضل . . . وكان عند التحاق ابنه بالجيش يخشى عليه عادية الردى ، ولكن بعد أن تدبر تاريخ حياته وما فيه من نكبات وفواجع ، استكثر على القادير أن تختمها بفقده ، وأصبح يميل إلى اعتقاد أن القادير رحيمة ، تكفر عما أصابته بهذه الحسنة ، وقد أغراه بهذا الوهم ما كان يصله من حين وآخر من سلامة ابنه من كل الأخطار ... !

في هذه اللحظة القدسية التي وجد فيها الشيخ نفسه بجوار حبيبته نسي العالم وما فيه من شرور ، وشعر بسمو روحه وبلذة قدسية ، كأنها قد هبطت عليه من السماء . . . وكان يزيد هذا الشعور الروحي في داخله كلما فتح عينه فرأى صورة زوجته وحبيبته ، أو هي بذاتها ... ولم يكن هذا الشعور من فعل الخمر ، فإنه لم يكرع غير ثلاثة أكواب من الويسكي لم تحدث له أي جموح في الخيال ، بل هي على العكس قد زادت في انتباهه وذهبت بالتعب الذي كابده طول هذا اليوم

وكان حديث الشيخ عادياً ، أو قل كان متقطعاً ، وهل في مثل هذه اللحظة يجري الحديث ؟ ... وكان معظم ما فاه به لا يخرج عن تعبيره عن غبطته وسروره وسعادته بتلك اللقيا ، وكانت الفتاتان لا تكلفان أنفسهما أكثر من الابتسامة رداً على تمنياته . وقد أحدث سروره نوعاً من الذهول جعله في عزلة عما يحيط به ؛ حتى إنه لم يشعر بوجود خادم الفندق بجواره يقدم إليه شيئاً في صحن ، حتى نبهته كبرى الفتاتين ، فالتفت إلى الوراء فوجد الخادم ، فقدم إليه برقية وقرأ على الغلاف : في خدمة صاحب الجلالة الملك . . . ففهم أنها برقية حكومية ، وما كاد يفض الغلاف ويقرأ البرقية حتى أفاق من نشوته ، وأظلمت الدنيا في وجهه ، وأغمي عليه ... فتناولت الفتاة الكبرى البرقية وقرأتها ؛ فإذا فيها :

« الملازم الأول « جيمس بارمان » أصابته رصاصة قضت عليه . . . ! » (القيادة العامة)

وبعد أن عاد إلى حسه سمع صوتاً يردد : « يارب ، لا تدمع بإجابة هذه الضراعة ، لأن فيها خرابي ، بل خراب أمتنا العزيزة ! » وتلا ذلك ضحكات ملئها السخرية والتهكم ... ففتح عينه ، فلم يجد مصدر هذا الصوت ، ولم يجد جليسته ... ولكنه شعر بحفيف أشبه بحفيف الأجنحة أحدث تياراً شعر به !

كامل يوسف

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)